الأبعاد الإجتماعية في رواية أعدائي لممدوح عدوان

طعمه عبد عوده الزهيري
طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
mont67368@gmail.com
د. مريم رحمتي (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
rahmatimaryam88@gmail.com
د. علي سليمي
أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
salimi1390@yahoo.com
د. يحيى معروف
أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
y.marof@yahoo.com

The social dimensions in the novel of my enemies by Mamdouh Adwan

Touma Abdel Aouda Al-Zuhairi
PhD student , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Maryam Rahmati (responsible writer)
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Ali Salimi
Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Yahya Maarouf
Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran

الملخص:-

تعد رواية (أعدائي) لممدوح عدوان روايـة تاريخيـة اجتماعيـة، إضـافةً إلى سايكولوجيا الشخصيات وفاعليتها ضمن الأحـداث التاريخيـة والبنـى الاجتماعيـة، فأحداث الرواية تجري في أكثر من مكان، ولكـل مكـان خصوصـية كمـا أن تعـدد الشخصيات وتعدد مشاربها يجعلنا نقف أمـام مجتمعـات متباينـة لـذلك كـان مـن الصعوبة أيضاً البحث في البنى المجتمعية جميعهـا لـذلك سـندرس أكثـر الأبعـاد الاجتماعية تأثيراً في الرواية، إذ سنتناول صـورة المـرأة مـن خـلال الشخصـيات النسـائية إذ كـان للمـرأة أثـر الفراشـة في الرواية إذ على الرغم من غياب شخصية البطل (المرأة) إلّا أنها كانت عنصراً فاعلاً مـؤثراً في البنيـة المجتمعيـة للروايـة، كمـا لعبـــت دوراً بـــارزاً في ســـيرورة الأحداث،ومن ثمّ سندرس أثر الاحتلال على البنى المجتمعية مـن قهـر ورضـوخ، وبعد ذلك ندرس بعد الخيانة، ومن ثم ندرس بعد القتل.

الكلمات المفتاحية: ممدوح عدوان، رواية أعـدائي، الأبعـاد الإجتماعيـة، المـرأة، البطل.

Abstract:-

The novel (My Enemies) by Mamdouh Adwan is a social historical novel, in addition to the psychology of the characters and their effectiveness within historical events and social structures. The events of the novel take place in more than one place, and each place has its own character, and the multiplicity of characters and the multiplicity of their walks of life makes us stand before disparate societies, so it was also difficult to research. In all societal structures, therefore, we will study the most influential social dimensions in the novel, as we will address the image of women through the female characters, as women had the butterfly effect in the novel, as despite the absence of the character of the hero (the woman), she was an active and influential element in the societal structure of the novel, as It played a prominent role in the process of events, and then we will study the impact of the occupation on societal structures of oppression and submission, and after that we study after betrayal, and then we study after murder.

Key words: Mamdouh Adwan, the novel My Enemies, social dimensions, woman, hero.

المقدّمة:

إن المتتبع لمسار الرواية العربية المعاصرة، يلحظ إقبال الروائيين على القضايا السياسية، والاجتماعية وتناول أبعادها، المعبرة عن قضايا المجتمع، ويتفق أغلبهم أن الإنسان أبن بيئته، ولا يمكن فهم سلوكه مالم يوضع ضمن إطار المجتمع، وما الأوضاع والسلوك الاجتماعي إلا انعكاسا لظروف اقتصادية، وثقافية، ودينية؛ لذا نرى أن الأمم اختلفت في أوضاعها الاجتماعية بسبب تنوع ظروفها الثقافية، والدينية، وغيرها، أن تكون الشخصية مقنعة هي المبتغاة، وهي سبب من أسباب نجاح بناء الرواية من خلال تقديم أبعادها بالتدريج، بما ينسجم مع المنطق الذي تفرضه الرواية، وهذا ما يمنح الشخصية دلالة تساعد القارئ على معرفتها، وفهمها، ويكاد يتفق الباحثون على أن للشخصية أربع أبعاد على النحو التالي:

١ -البعد الفزيولوجي (المادي): ويتضح في ذكر أوصاف الشخصية، من لون، وجنس وغيرها.

٢- البعد الايدلوجي: يظهر الانتماء الفكري وعقيدة الشخصية السياسية، وبالتالي فإن الملامح الأيدلوجية لها أثر كبير في تحديد وعي الشخصية، ومواقفها في توجيه سلوكها كما يوضح الانفصام الذي تعيشه الشخصية بين ما تؤمن به أو تقوله من أفكار، وتمارس عكسه بوعي أو بدونه "(محمد ابو عزة:٢٠١٠: ٤٠)

٣- البعد النفسي: الشخصية من أصعب معاني علم النفس، يقوم الراوي بالخوض في بواطنها وما تخفيه من مشاعر وانفعالات وافكار لأحكام السيطرة عليها وإخراج مكنوناتها وكشف الستار عنها للقارئ؛ لتجذبه وتشده إليها، وخلق حلقة وصل بينها لمشاطرتها التفكير، ولتكون خالدة في ذاكرته " (فريال سماحة:١٩٩٩: ٣٢)

٤- البعد الاجتماعي: ويتم من خلال رصد الخلفية الاجتماعية للشخصية وانتمائها إلى طبقة اجتماعية ما، وما نوع العمل الذي تقوم به، والذي نبحث عنه هو البعد الاجتماعي باعتباره ويعد البعد الاجتماعي الأكثر إيضاحا في هذا النوع الأدبي الروائي، وذلك لما يعالجه من قضايا ومشكلات متعددة الأنماط، تسهم بقدر كبير في قضايا المجتمع، ونلاحظ كثرة المواضيع التي طرحت في رواية أعدائي، ذات صلة وثيقة بالوضع الحالي في المجتمع، وقضاياه المثيرة، التي تتناقلها الإعلام بكل صنوفه،

فالواقع الذي نقله ممدوح عدوان، والتي أراد معالجتها بطرق إيجابية، والتي ظل يتعامل معها وفقا لعادات المجتمع وتقاليده الصارمة، وكان للدراسة وفق نظرية غولدمان ما هو إلا التقاطات لواقع مُعاش على أرض الواقع، اختلفت الأبعاد الاجتماعية في أعدائي، فهي لا تتشابه في اندفاعاتها ولا حتى في أهدافها، وأصولها، كذلك النساء تتراوح في سلوكها، كذلك تتراوح في مشاعرها، فبعضها تعلن الولاء للوطن، وبالعكس، فكان عدوان على مدار سلسلته الروائية الإبداعية يحاول أن يرتكز على معالجة قضايا يعيشها المجتمع العربي عموما؛ لأن واقع الإنسان بصورة عامة رجلا كان أو امرأة هو أحد أشكال الحقائق الإنسانية، والرواية في حقيقتها نقد لذلك الواقع،ومن أجل بناء هذا القالب الفني الروائي لابد من الرجوع إلى الواقع الاجتماعي، فالكاتب في صياغته لنصه الروائي يحاول التوفيق أفكاره والواقع الاجتماعي، فالحياة الاجتماعية هي الحياة التي يمارسها الفرد في تعامله مع زملاؤه، من أفراد جنسه، ولا تتشكل الحياة الاجتماعية إلا بوجود ذلك التفاعل بين الأفراد.

ولعل السبب الحقيقي وراء اختيارنا لهذا العنوان، هو الإعجاب بالحالات الاجتماعية التي تطرقت لها رواية أعدائي، والتي تناقش سلطة العدو مع أبناء الشعب، وآثارها السيئة.

تكمن أهمية الدراسة في: إنه يرى الباحث أن رواية عدوان التي مثلت فترة تأريخية مهمة من تأريخ الاستعمار للعرب، لم تأخذ حقها من الدراسات النقدية، خصوصا وأنها رؤية نقدية، لمجتمع عاش تحت وطأة العدو.

منهج البحث:

منهج البحث هو المنهج التحليلي الوصفي، الذي يقوم على استقراء النصوص، ومن ثم تحليلها وفق منهج سوسيولوجي.

الدراسات السابقة:

١. صورة اليهود في رواية ممدوح عدوان (أعدائي)، عادل الأسطة كتب لندوة في دمشق، تحدث فيها عن صورة اليهود، وذكر أنها صورة مختلفة عن الصورة التي

ظهرت لهم في نصوص أدبيه أخرى، كما تحدث فيها عن الصورة التي رسمها اليهود لأنفسهم، حيث بدت صورهم عند البعض وعند اليهود أنفسهم في رواياتهم صورة إيجابية.

٢. سؤال الذات ومرايا الآخر في رواية أعدائي، لعادل مصطفى أحمد الأسطة، جامعة النجاح ٢٠٠٤، طرح إشكالية من هي الذات، ومن هو الآخر في تلك الفترة؟

٣. ممدوح عدوان في رواية أعدائي والعيش أبدا في اللحظة الراهنة، محمد جمول، تحدث الكاتب عن الميجور عارف إبراهيم، رئيس الشرطة العدلية في بيروت، في القدس، هو حامل مشروع الدولة العلية الذي يجهل طبيعته، وسبل تحقيقها، وكذلك كان العرب ومنهم ضباط الجيش العثماني في حيرة من أمرهم، إذ لا يعرفون من هو الصديق، ومن هو العدو.

أما الخطة التي تتبعها الدراسة فقُسمت إلى مقدّمة ومبحثين، تناول المبحث الاول التعريف بالكاتب وأهم ما قيل عنه، وشمل ملخصاً للرواية، أما المبحث الثاني تطرقنا فيه إلى التعريف ب كلمة " أبعاد في اللغة والاصطلاح، كذلك بينا فيه أهم الابعاد الاجتماعية في الرواية، ومن ثم تطرقنا بعد ذلك إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول

ترجمة ممدوح عدوان

ممدوح عدوان كاتب وشاعر مسرحي سوري، ولد في سوريا عام ١٩٤١في قرية قيرون، تخرج من جامعة دمشق، قسم اللغة الإنكليزية عام ١٩٦٦، وعمل صحفيا في صحيفة الثورة السورية عام ١٩٦٤ كتب المقالة في عدة صحف سورية، قرأ للعديد من الفلاسفة، وصفوة المثقفين، وأقطاب الفكر السياسي فغدا شاعر الجامعة، وجاء شعره منسجما مع روحه، وكان خير صوت لتلك الأحداث، توفي بمرض السرطان، وتخليدا لذكراه قامت زوجته إلهام عبد اللطيف بتأسيس دار نشر بأسمه بعد نحو عام من وفاته، تولى ولداه هذا المشروع بعد وفاة والدتهما (العتبة الحسينية: ٢٠٢٢: د.ت)

أما اهم أعماله الأدبية فهي:

لـه عـدة مؤلفـات تنوعـت بـين الروايـة، والمسـرح، والتلفزيـون، والكتابـة، ولـه مـن الترجمات أيضا، له (٢٦) مسرحية، و(٢٢) مجموعة شعرية، وروايتين، و(٨) كتب متنوعة، و(٣٠) كتابا مترجما فمن الدواوين الشعرية: الظل الأخضر، تلويحة الأيدي المتعبة، يألفونك فأنفر، أمي تطارد قاتلها، أقبل الزمن المستحيل الدماء تدق النوافذ، وهذا أنا ايضا، أغنية البجع، حياة متناثرة، مختارات، وغيرها.

ومن المسرحيات: المخاض، محاكمة رجل لم يحارب، كيف تركت السيف، ليل العبيد، الوحوش لا تغني، هاملت يستقض متأخرا، لو كنت، زيارة الملكة، وغيرها (توفيق الشيخ: ٢٠٠٧: ١)، أما في مجال الرواية: رواية "أعدائي"، ورواية "الأبتر"

قال عنه فيصل دراج: " كاتبا متعدد فقد أبدع في جميع الفنون، في الشعر، في المسرح، في الرواية، في الدراما التلفزيونية في الصحافة، في الترجمة، كان صادقا ثائرا في جميع كتاباته، ولهذا اتهم بأنه مولع بالصراخ لكنه برر حقه بالصراخ حين قال " أنا أصرخ ويجب ان تبقى لي هذه الحرية، الموجوع الذي لا يصرخ هو ميت.. وما يسمونه صراخا هو ما أسميه لمس المواجع، لا استطيع أن أمسح الشعر والخد وأنا أدعي إنني أعالج طعنة في الخاصرة " (توفيق الشيخ: ٢٠٠٧: ٢-٣)

وقال عنه الدكتور أحمد بسام ساعي: " استطاع ممدوح عدوان أن يمنح كثيرا من الشخصيات العربية القديمة أبعادا إيجابية ومفهومات حية جديدة، مسقطا عليها بعض من حاضرنا، ومخترقا ببعضها حجب التأريخ؛ ليكشف عن جوانب جديدة"، (على جبار جلوب:٢٠٢١: ٧٨)

قال عنه وزير الثقافة السوري الدكتور محمود السيد في ذكرى أربعينيته: " عن ارتباط نتاج عدوان الأدبي رغم اختلافه وتنوعه بقضايا أمته العربية وهمومها، وهو ما يعكس - على حد قوله- إيمانه الشديد برسالة الفن التي تتجسد في الدفاع عن إنسانية الإنسان، وأضاف السيد أن الشاعر الراحل جمع في شخصيته بين ثنائيات متناقضة بين الغضب والسخرية، والحب والمخاصمة والألفة والمشاكسة، موضحا أن هذا التناقض جعل إنتاجه الأدبي غنيا، ومتنوعا ومتمردا على كل ما هو متخلف وجامد ومتربص بانسيابية الحياة وتقدمها" (موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٥: د. ص)

قراءة موجزة في رواية أعدائي:

لعل تسمية الرواية بأعدائي يكشف عن محتواها، حيث تحكي الرواية أحداث، وتفاصيل فترة الحكم العثماني لحظة انهياره،والاحتلال البريطاني للقدس، والمعاهدات ألتي رافقت وعد بلفور، وسايكس بيكو، وكذلك أصداء التحول الخطير على أبواب الحرب العالمية الأولى، لتُظهر الرواية الأحداث التي جرت في تلك المرحلة، من خلال الاطّلاع على التاريخ، ووقائعه التي حدثت وبكل ما فيه من حقائق وتجلّيات، ساهمت في خلق راهنٍ يعيش فيه المجتمع معانياً من نتائجه، تقرأ الرواية الأحداث الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، وتصف المجاعة التي أصابت بيروت، والقدس في عهد جمال باشا العثماني وانحلال السلاطين العثمانيين، من خلال انشغالهم بالملذات، واستغلال اليهود الفرصة في شراء الأراضي الفلسطينية، رواية أعدائي عمل بالغ الثراء بالتعقيدات الاجتماعية ، ففي الوقت الذي يعيش فيه القارئ لذة المتابعة للأحداث، ولذة انفتاح النص على عدة قراءات، يتبادر إلى ذهنه ويستحضر الأحداث السياسية، التي عاشها المجتمع العربي في ذلك الوقت، الأبطال هم جمال باشا، وعشيقته اليهودية سارة، وحولها جواسيس، وضباط مغامرون، تعالج الرواية التي صدرت عن «دار ممدوح عدوان» فترة بالغة الحساسية في الحياة السورية، هي السنوات الأخيرة لحكم الرجل المريض.

تشير إلى نزعات الاستقلال وتياراته، ما اقتضى غنىً في الشخصيات وتنوعاً فريداً في المقولات التي حملتها الرواية، لا سيما أنّ عدوان قد أعطى لشخصياتهِ المدى الحر في التطور والوفاء لمنطق كلّ شخصية

المبحث الثاني

الأبعاد الاجتماعية لرواية أعدائي

يبدو للقارئ إلى أن موضوع الرواية موضوع واحد، وهو الرئيسي موضوع احتلال الدول العظمى للدول العربية ومخططات الاستيلاء اليهودي على فلسطين، لكن الحقيقة هي أكثر من موضوع، وأكثر من مشكلة نقلها الروائي، كشفت عن مشاكل مختلفة من الحياة.

وتعد الرواية فن نثري مرتبط بالتجارب الإنسانية، وهي من أكثر الأجناس الأدبية وأقدرها على رصد حركة المجتمع وأبعاده، ويتمكن الروائي من خلال عملية السرد من

استعراض الأحداث والشخصيات والزمن والمكان في الرواية ويكون كل عنصر من عناصر الرواية علامة أو رمزاً لتضمن الأبعاد والقيم المجتمعية داخل النص أو خارجه، وحسب لوكاتش فإن الرواية " ليست إلّا ملحمة البرجوازية التي ظهرت على مسرح التاريخ في أعقاب النهضة الأوربية، وبالتحديد بعد الثورة الصناعية، التي جعلت منها الطبقة السائدة في المجتمعات الأوربية " (حنا عبود: ٢٠٠٢: ١٣)

ولكي نتمكن من استخلاص الأبعاد الاجتماعية من النص الروائي، لا بد لنا من التركيز على أهمية العلاقات الاجتماعية، ومدى تأثير القيم والمبادئ في تلك العلاقات، إضافةً إلى الحاجات المادية للشخصيات، لأن الإنسان محكومٌ بحاجاته الفيزيولوجية، والنفسية والاجتماعية.

وبذلك يكون من الصعب علينا تحديد الأبعاد الاجتماعية في الرواية بدقة؛ فسوسيولوجيا الرواية قد شغلت علماء اجتماع الأدب دوماً دون أن يقوموا بخطوة حاسمة على طريق تبيانها، ولما كانت الرواية في الأساس، خلال القسم الأول من تاريخها، سيرة حياة، وتاريخاً اجتماعياً قد تمكنا دوماً من أن نبين أن التاريخ الاجتماعي يعكس مجتمع الحقبة نسبياً، وهي نتيجة لا حاجة لنا كي نتوصل إليها كي نكون علماء اجتماع.

فكان عدوان على مدار سلسلته الروائية الإبداعية يحاول أن يرتكز على معالجة قضايا يعيشها المجتمع العربي عموما؛ لأن واقع الإنسان بصورة عامة رجلا كان، أو امرأة هو أحد أشكال الحقائق الإنسانية والرواية في حقيقتها نقد لذلك الواقع.

ومن أجل بناء هذا القالب الفني الروائي لابد من الرجوع إلى الواقع الاجتماعي، فالكاتب في صياغته لنصه الروائي يحاول توفيق أفكاره والواقع الاجتماعي.

لمعرفة الأبعاد الاجتماعية في الرواية نأخذ بعض جوانبها بعد أن نتعرف على معنى كلمة أبعاد.

بُعد في اللغة: أبعاد مفردها بُعد، " والبعد خلاف القرب. بعد الرجل، بالضم، وبعد، بالكسر، بعد فهو بعيد وبعاد عن والبعد، وعند سيبويه: أي تباعد وجمعهما بعداء، وافق الذين يقولون فعيل الذين يقولون فُعال؛ لأنهما أختان وقد قيل بُعد " (نجوى طراد، شهرة بو بقيرة: ٢٠١٧: ٩)

البعد اصطلاحا: " اتجه البعد اصطلاحا إلى الناحية الفيزيائية، أو الرياضية، البعد في الفيزياء والرياضيات يعرف لمكان أو لجسم بالحد الأدنى للإحداثيات اللازمة لتحديد أي نقطة في داخله وهذه الخطوط لها بعدا واحدا لأن احداثي واحد فقط هو المطلوب لتحديد النقطة عليه، والبعد هو الإحداثي، والأبعاد احداثيات المعروفة هي: الطول والعرض والارتفاع العمق و الإحداثي غير المرئي و هو الزمن" (نجوى طراد، شهرة بو بقيرة:٢٠١٧:١٠)

دراسة بعض هذه الأبعاد في رواية أعدائي:

أولاً – صورة المرأة في رواية أعدائي:

عدّ بعض الباحثين دور المرأة من عوامل ضعف الدولة العثمانية إذ إن تعدد الجواري والمحظيات لدى أصحاب السلطة أدى إلى تعدد أمهات الأولاد وبالتالي اختلاف الأولاد فيما بينهم، وتدخل هذه الجواري والنساء في القصر عامةً في سياسة الدولة والتوسل لدى الخليفة لرفع هذا، وتسليم الصدارة العظمى إلى هذا، وبين هذه النساء يعيش ولي العهد محجوباً لا يعرف شيئاً من أمور الدولة فعندما يؤول إليه الأمر ينظر إلى ما يُعرض عليه نظرة الجاهل فيتلاعب به كبار المسؤولين. (محمود شاكر:٢٠٠٠: ١٢٠)

كانت تلك الرؤية العامة للمرأة في العهد العثماني وسنرى دور المرأة في كثير من مفاصل الحياة الاجتماعية والسّياسية تؤدي هذا الدور على الرغم من أنّ أحداث الرواية تدور في منطقة الشرق الأوسط

أوّل ظهور لشخصية المرأة الشرق أوسطية كانت زوجة عارف إبراهيم، وإن لم تكن شخصية رئيسية في الرواية إلّا أنها جسدت واقع المرأة في الشرق، إذ بقيت المرأة ضمن أطرها التقليدية بعيدةً عن الشأن العام والعلم والعمل والمشاركة في الحياة خارج المنزل، وقد عاشت المرأة في غاية الاحتشام والهدوء.

" قالت الأم لإبراهيم ابنها: إطلع شف مابه. ما أحد يجرؤ أن يحكي معه غيرك... وأحس بالحرج. ليس من السهل الحكي مع هذا الأب: إحكي معه أنت.أنا لا أجرؤ. حرمه. إذا كلمته يضربني. الرجل إذا أراد أن يفش خلقه يضرب حرمه أو يحكي مع رجل قم يا

ابني قم الله يرضى عليك. أنت رجال مثله. أعجبه اعتراف أمه برجولته. هذه المرأة الجاهلة تعرف الرجال أكثر مما يظن أو يظنون. خبرتها علمتها الكثير لكنها تظل صامتة، وهي تعرف أكثر مما يتوقعون " (أعدائي:٢٠٠٠: ٣٢).

إذا مثلت زوجة عارف إبراهيم نموذج الزوجة الشرقية بطاعتها لزوجها، ومعاملة أبنائها وفق القيم والمعايير الشرقية لكن هذا لم يلغ أثرها ودورها في السيطرة على الأمور بفطرتها وعفويتها.

أما نموذج المرأة العربية المغاير فجسده ممدوح عدوان من خلال شخصية نهال والذي جاءَ وصفها على الشكل الآتي: " فوجئ عارف وهو يخرج من السرايا بوصول نهال حامد هذه المرأة لا يستطيع أن يفهم لها أساساً من رأس تتصرف تصرف الضباط. تعطي الأوامر وتناقش وتضع الخطط، وتحمل السلاح وتقاتل أحياناً. مسترجلة ولكنها في الوقت نفسه تسهر وتسكر وترقص وتغني وترافق بعض الضباط الأجانب إلى غرفهم في الفنادق" (أعدائي:٢٩)

كان هذا استعراض لصفات نهال من وجهة نظر عارف إبراهيم إلّا أن ممدوح عدوان سمح للشخصية بتقديم المبررات لتصرفاتها، مستعرضاً نموذجاً من النساء الشرقيات وهي المرأة المتعلمة والتي يختلف مفهومها للشرف والأخلاق عن مفهوم مجتمعها، وتعتبر أن شرف المرأة مرتبط بشرف بلادها وقضاياه، فأيّ شرف لإنسان في بلادٍ مستباحة.

أول مرة استخدمت جسدها فيها بشكل علني كانت حين أوقعت بشيمون ساري.

"كان قد نزل في فندق في بيروت... يومها سكنت غرفة مقابلة له. وفي ساعة المداهمة تظاهرت أنها تستحم. وسمحت بجسدها العاري أن يظهر له وهو في غرفته. انجذب إلى النافذة وتسمر عليها. وهكذا استطاعوا أن يقتحموا الغرفة وينقضوا عليه قبل أن يستطيع الوصول إلى سلاحه " (أعدائي: ٤٢٠).

إن شخصية (نهال) سلطت الضوء على الصراع بين القيم المجتمعية الأخلاقية ورؤية الفرد لهذه القيم وطرحت أسئلة اجتماعية ونفسية كبيرة هل يكون الإنسان حراً في بلدٍ محتل، هل يكون الإنسان ذو كرامةٍ في وطنٍ مستعبد، إنّ شخصية (نهال) ضربت بعرض

الحائط قيم المجتمع العربي وكانت نموذجاً مناقضاً لزوجة عارف إبراهيم، كانت تصرفات (نهال) خرقاً واضحاً لكل المعتقدات والقيم الدينية والاجتماعية ووضعت القارئ أمام سؤال هل الجسد مقياسٌ لأخلاق المرأة ؟ وهل هو رمز عفتها ؟ وبمعنى آخر إن طريقة استخدام المرأة لجسدها هو الذي يحدد قيمتها الأخلاقية فهي تعتبر التفريط بجسدها في سبيل وطنها شرفٌ عظيم تستحق التقدير عليه.

ويستعرض ممدوح عدوان دور المرأة في حياة جمال باشا، ونستطيع من خلال هذا الاستعراض الكشف عن كثير من بُنى المجتمع، ودور المرأة السياسي والاجتماعي، ففي حفلةٍ أقامها جمال باشا حاول أن يكون محاطاً بالنساء وكانت كل امرأة من مجتمع مختلف وكانوا ذوات انتماءات مختلفة، لكل امرأة قضية وقصة، يقول الراوي " وأرسل يدعو سارة... لماذا استدعاها إذا ؟ أيريد أن يستعرض غرامياته أمامها؟ ستريه أنها ليست سهلة. كانت الأولى، كما قدمها جمال أديبة تركية اسمها خالدة أديب.

امرأة جميلة وناضجة في الثلاثينيات من عمرها. قال جمال إن خالدة ستشتغل في دمشق وبيروت في تنظيم المدارس ودور الأيتام" (أعدائي: ٤٨٧)

وضعنا ممدوح عدوان في هذا المقطع أمام المرأة التركية التي تكاد تكون كاملة الصفات فهي مثقفة متعلمة جميلة مهتمة بالشأن الإنساني، وعلى الرغم من انتشار الصورة السوداوية للمرأة التركية في كتب التاريخ إلّا أن (عدوان) كان أميناً في تصوير المرأة التركية بوصفها مكوناً فاعلاً في المجتمع والحياة.

وبعد أن استعرضنا النموذج الاجتماعي للمرأة العربية والتركية، كانت هناك في مكان الحفلة، المكان الروائي ذو الأبعاد المحددة والذي جمع ثلاث مجتمعات، سارة الجاسوسة اليهودية والتي قدمها (ممدوح عدوان) بتفاصيل وأحداث عديدة وعرض شخصيتها وخباياها من نواحٍ عديدة كانت سارة صاحبة منولوجات طويلة في الرواية، تمكننا من خلال هذه المنولوجات تسليط الضوء على الأبعاد الاجتماعية للمجتمع اليهودي، ونرى في هذا المقطع آلية تفكير سارة المرأة اليهودية " ولكنها راحت تتساءل بجدية إن كان عليها أن تنام مع الباشا هل صحيح أنّه ذات يوم يمكن أن يميل أو يستيقظ كبرياؤه ؟ يجب أن لا تفقد خطوتها عنده أبداً. فآرون في الخارج. والاتصال مع الإنكليز سيستأنف بعد أيام. وهو نفسه

قال إنه يعتمد عليها هنا. ويجب أن تكون عند حسن ظنه. وابتسمت. هل حسن ظنه أن تنام مع الرجال ؟ ومع جمال بالتحديد " (أعدائي: ٤٨٦)

سارة الجاسوسة اليهودية هي أيضاً تستخدم جسدها للوصول إلى غايتها، وكأن جسدها أداةٌ من أدوات عملها، وكانت فكرة إقامة علاقة مع الباشا تحتاج إلى الوقت المناسب فقط، كان تواجد سارة مع الباشا بعلم أخيها آرون فهو زعيم التنظيم وحبيبها أفشالوم والتي كانت تفكر بإمكانية إخباره عند إقامة علاقة مع الباشا أما ألتر الجاسوس الذي كان عاشقاً لسارة كان يشجعها على الإسراع بالتقرب من الباشا عبر علاقة تكون هي الطرف المبادر فيها، ومن خلال هذه العلاقات نلاحظ تأثر اليهود بالمجتمع الغربي.

وعلى الرغم من اختلاف الثقافات والمجتمعات لدى النساء الثلاثة نهال - خالدة - سارة إلّا أنهن كنّ محظيات عند جمال باشا، وهنا يظهر (ممدوح عدوان) أثر البعد الاجتماعي للمكان في علاقة المجتمع بالإنسان ومدى تأثير المكان في شخصية الإنسان.

فلقد كانت المرأة في رواية أعدائي شخصية رئيسية محورية ومحركة للأحداث، " فإذا كانت الرواية تمتزج أحداثها من خلال علاقات عنصري الوجود البشري، فإنّ الذي لا شكّ فيه أنّ صورة المرأة أكثر استقطاباً لحركة الواقع، وأغنى دلالة لتحديد موقف الأديب منه " (حسان الشامي: ١٩٩٨: ٢٦٢)

ثانياً - مظاهر القهر والرضوخ:

يعيش الإنسان المقهور في عالم من العنف المفروض، هذا العنف يجعله يعيش في عالم الضرورة، في حالة فقدان متفاوت في قدرته للسيطرة على مصيره، ولا يجد الإنسان المقهور من مكانة له في علاقة التسلط العنفي سوى الرضوخ والتبعية، والوقوع في الدونية كقدر مفروض ومن هنا شيوع تصرفات التزلف والاستزلام والمبالغة في تعظيم السيد، اتقاءً لشره أو طمعاً في رضاه، إنّه يعيش في عالم بلا رحمة أو تكافؤ إذا أراد المجابهة أو فكر في التمرد، فسيأتي الرد حاسماً يقنعه بقمع أفكاره التمردية " (مصطفى حجازي: ٢٠٠٥: ٣٧)

ظهرت مظاهر الرضوخ منذ بداية أحداث الرواية ففي إشارةٍ إلى كيفية تعامل ضباط جمال باشا مع الحرس، أخذت تتصاعد تلك المظاهر إلى نهاية الرواية.

" كان الدركي عند شاطئ البحر حيث يجب أن يكون. هو أحد رجال الدرك المكلفين بمراقبة السواحل مقابل صيدا. لا نعرف ماذا كان يفعل ولكن العسكري دائماً حين يفاجئه رئيسه يرتبك ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه يظن دائماً أنّه ليس في الوضع الصحيح... العسكري المسكين حين رأى الضابط أمامه خاف أن يكون أمام جمال باشا نفسه أو أمام أحد ضباطه. وهل يحتاج هذا المعتر إلى جمال باشا لكي يخاف ؟ تكفيه أي رتبة، أي نظرة حاسمة، أي صوت آمر " (أعدائي: ١٤)

إن أولى مظاهر القهر كانت جلية بعلاقة الرئيس بالمرؤوسين، فالعلاقة في المؤسسة العسكرية قائمة على إهانة الرتبة الأعلى للرتبة التي تقل شأناً عنها ففي المشهد بين الحارس ورئيس الحرس، نرى كمّاً من الشتائم والإهانات وإلقاء المسؤولية على الحارس، وكأنّه حوار شخصي بين سيد وعبد دون مراعاة القيم الأخلاقية للرتبة الوظيفية.

" تترك البارودة وتجيء ؟ والله لألعن أجداد أجدادك يا إبن الصرماية. ماذا سيقول عنا حضرة الأفندي ؟ حمير ؟ دواب ؟ بقر ؟ انقلع من وجهي الله يخزيك " (أعدائي: ١٥)

ويتابع رئيس الحرس إهانة الحارس أمام الأفندي، تلك الإهانات التي تمس شخصيته وإنسانيته، ولا نجد أي ردٍ من الحارس أو حتى استغراب وكأنه معتادٌ على الإهانة والرضوخ.

وقد تجلت مظاهر القهر والتسلط بأوضح صورها في قضية إعدام الشباب الثوار، فظهرت هنا عملية التماهي بأحكام المتسلط، وتوجيهها إلى الذات على شكل مشاعر ذنب ودونيه وبتخسيس للعتمة الذاتية إن الإنسان المقهور ينخرط في عملية الحط من قيمته، وقيمة الجماعة الأصلية التي ينتمي إليها.

- " تنحنح الباشا لكي لا يخرج صوته مهتزاً: ماذا تنتظر ؟
- أوامرك يا باشا
- أوامري معروفة. تأخذون المساجين إلى القشلة. وعند الفجر تجلبونهم إلى المرجة والناس.
- هل تسع القشلة لهم كلهم ؟

- إذا تجمع الناس للفرجة لا مانع. ولكن أريد أن يحيط الجنود بالمحطة. وكل الذين يأتون للفرجة ستسوقونهم إلى الجيش... وليكن بعلمك. كل واحد من المحكومين برؤوس خمسة ضباط من رتبتك على الأقل. إذا هرب أحد منهم يا ويلكم "(أعدائي: ٣٢٠).

إن حرص جمال باشا على وصول مشهد الإعدام إلى أكبر عددٍ من السكان يدّل على مدى استباحته لدماء وسكان دمشق والشعوب التي تخضع لحكمه هذا من جهة ومن جهةٍ أخرى إن تجمع السكان للفرجة ينقل حالة الضعف والاستكانة التي تعيش بها تلك الشعوب، سيقفون للفرجة على إعدام أبناء وطنهم، لم يكتفِ الباشا بإهانتهم وترهيبهم فبعد مشهد الإعدام سيساق المتفرجون إلى الجيش، وكأنّ الشعب في حلقة مفرغة من الاستبداد والظلم ، فالناس التي تقف لا حول لها ولا قوة سيلاقون حتفهم دفاعاً عن قضيةٍ ليست بقضيتهم، سيموتون مجاناً.

"اسمع. كل واحد من المعدومين له أقارب. أليس كذلك ؟ الذين لهم أقارب أو أهل في دمشق في الكرك في حمص في معان. أينما كانوا سجل لي أسماءهم. وأبلغهم من الغد أنني سأتغدى في بيت واحد وأتعشى في بيت الآخر ما رأيك ؟ بدل أن يعملوا طعاماً خاصاً للعزاء سأجبرهم بالجزمة أن يعملوا ضيافةً للباشا وضيوفه " (أعدائي: ٣٤٤)

أي إهانةً تلك أن يقوم أهالي المحكومين بالإعدام بإعداد طعامٍ لقاتل أبنائهم أي سادية تلك التي مارسها جمال باشا بأن يجبر الأهالي على الاحتفال بموت أبنائهم في هذا المشهد تجلت خلاصة الحكم العثماني ربما، وعلاقة الحاكم بالمحكوم وسيطرة الفكر العثماني بالقوة على قضايا ومفاهيم المجتمع العربي واللجوء إلى العنف في حالة عدم انصياع العرب لتوجيهات الحكم العثماني، فلم يكن الفكر الديني هو الذي يسيطر على العلاقة بين المجتمع العربي والمجتمع التركي، فإن كان العرب على قناعةٍ بحكم الإسلام للمجتمع عن طريق العثمانيين، فإن الأتراك كانوا دائماً وعلى مدى حكمهم يحكمون بالقوة العسكرية قبل الفكرية كل الشعوب التي كانت تحت سيطرتهم.

ثالثاً – الخيانة:

من الأفعال المرفوضة، على مستوى المجتمعات، والدين، وحتى القانون، فهي تعتبر:

"مخالفة ونقض العهد في السر " (سعيد محمد: ٢٠١١:١٦٨)

في الرواية وجدنا الخيانة صفة ملازمة لأغلب شخوصها، فهم إما جاسوس لليهود، أو للإنكليز.

" امتلأت الدنيا بالجواسيس،... فالبلد يعج بالجواسيس... الجاسوس نفسه هو ابن الحكومة... ولا كان اليهود جديدين عليه... وهم في أعلى المناصب، وهم محميون بامتيازات فرضتها علينا الدول العظمى، هم جواسيس للدول كلها لألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وهاي هي أمريكا تدخل على الخط " (الرواية:٢٠٠٠: ١٠)

الكاتب عارفا بمجتمعه وقضاياه المعاصرة، فهو على دراية من أن الجاسوسية باتت منتشرة في المجتمعات، فروايته لم تنشأ من فراغ، فهي ثمرة للبنية الواقعية الحياتية المُعاشة، حيث يعتبر هذا المصطلح للكثرين مصدراً للمس والإهانة والعدوان، فعندما يبلغ المجتمع مبلغ الانحراف والاعوجاج والتشوه والتلوث، واختلاف المفاهيم، فسيكون من الصعوبة علينا اكتشاف البعد الأخلاقي لأفراده وسوف نجد لدى البعض قيم الشرف والبطولة والتضحية، والانصاف، وسنجد لدى البعض الأخر قيم الخيانة والخسة والنذالة، والوضاعة والتأمر، وهذا ما صرح به عدوان في أكثر من مقطع في روايته.

ونقرأ نصاً أخر من الرواية:

"جمال باشا يسأل بهاء عن ألتر ليفي:

"قل لعلي باشا من هو ألتر ليفي ؟

تطلع بهاء... إلى على باشا وقال: " ألتري اباشا واحد من اليهود الأغنياء...

طيب طيب حدث على باشا عن علاقتنا به...

حين ذهب مولانا إلى القدس رحب به ألتر باسم الرعايا الأجانب، وتبرع لحملة مصر من الأدوية، وأضاف جمال باشا: ومنحته وزارة الحربية بناءً على اقتراحنا وسام الحرب العالي... يكفي بهاء رح لشغلك " (الرواية: ٤٩،٥٠:٢٠٠٠)

خيانات في قيادات الجيش، أسهمت في انهيار الدولة، والسيطرة على كثير من العواصم

العربية. إضافة إلى انهيار قادتها، فالخيانة ليست من اليهود فقط لكن في القيادات العربية أيضا، ولكل فعل رد فعل أسهمت هذه الخيانات أما بالقتل في آخر المطاف، أو تكريم الخائن بالحصول على مناصب وطرد الوطنين الحقيقين.

رابعاً – القتل، الموت:

جريمة القتل رافقت الإنسان منذ نزوله إلى الأرض، وإلى يومنا هذا، ودوافعها غالبا الغيرة والحسد، وهذا ما أثبته القرآن الكريم في قصة أولاد آدم قابيل، وهابيل، وقصة سيدنا يوسف عليه السلام جريمة القتل بصفة عامة التعدي عن الغير وجاء في مفهومها من المنظور الاجتماعي على أنها: "ذلك الفعل العدائي والمعارض لتماسك الجماعة التي يعتبرها الفرد جماعته الخاصة " (رمضان السيد: ٩:١٩٨٥)

ومن الدوافع الرئيسية للسلوك الإجرامي هو الوضع الاقتصادي وقد قيل في ذلك: "إن الفرد إذا كان محتاجا فإنه لا يتورع عن ارتكاب أية جريمة للحصول على المادة ليعيش منها، وقد أرى أفلاطون أن السبب الأول والمهم في السلوك الإجرامي هو حب الثروة والجشع المادي" (حسن شحاتة:١٢٧:١٩٦٦)

وتستمر صورة القتل في الرواية المتمثلة بإعدام جمع من المواطنين بحجة أنهم جواسيس:

"قال جمال باشا سيوقع قرار الإعدام بمن؟

بالمواطنين

فاجأته الكلمة تطلع إليه بحدة: يستاهلون بابا؟

ماذا تتوقع إذن جواسيس، إنهم يتآمرون على البلد ونحن في حرب

بابا أنت تصدق هذا الكلام ؟ تصدق أنهم جواسيس ؟

هؤلاء عرب مثلنا، ويريدون أن يحصلوا لنا حقوقنا...

.... غالي الوطن والذين سوف يعدمهم جمال باشا يضحكون من أجل وطنهم " (الرواية ٣٣- ٣٤)

تعددت جرائم القتل في الرواية، " والجريمة سلوك ينتهك القواعد الأخلاقية التي وضعت لها الجماعة جزائيات سلبية تحمل صفة الرسمية، والمجرم هو الشخص الذي يرتكب فعلاً غير اجتماعي سواء كان بقصد ارتكاب لجريمة أم لا، فالمجرم شخص يتصرف على نحو يخالف المعايير الاجتماعية". (محمد شحاته ربيع: ١٩٩٤: ٣٩)

صورة أخرى من صور القتل ورؤية الموتى التي تشكل متعة لليهود:

"سمعت بالمعتقلين الذين سيعدمهم جمال باشا ؟

... العرب خائفون...

ماذا كنت ستعمل؟

سأزيد عدد الموتى

ألا تشفق عليهم ؟

على هؤلاء العرب ؟! هؤلاء يمكن أن تشفقي عليهم إلا في مسألة الموت...

يموتون وينشرون الموت حولهم

... في دير الزور مات الناس من أكل السمك.... بعض الجثث مصابة بالطاعون..." (الرواية ٧٣-٧٤)

جاء الروائي ليسرد لنا واقعة الإعدام، وقتل العرب بأسماك مصابة، فكانوا هؤلاء الأفراد يعيشون حالة من الخوف في انتظار الموت، حالات كثيرة ذكرت توزيع أدوية منتهية الصلاحية للعرب،... حكايات كثيرة تنقلها الرواية لا تبعث إلا على الموت في أي لحظة.

أما مقتل ديفيد آلروي اليهودي المتمرد، والذي ذبحه والد زوجته قبل أن يقتله المسلمون؛ لافتضاح أمره، شكل سببا آخر للموت.

"هل سمعت بديفيد آلروي؟

من هذا ؟

متمرد يهودي ضد المسلمين في آذربيجان في القرن الثاني عشر الميلادي كتب عنه

دزرائيلي، يقوم ديفيد بقتل أمير مسلم دفاع عن شقيقته، ثم يبدأ بتحريض اليهود الآخرين للعودة إلى القدس، أو العودة إلى التفكير والحلم بها، يعني كان مثلك، ولكن اليهود خافوا من انتقام المسلمين منهم على الأمير القتيل، وخافوا أن يتألب عليهم المسلمون بسبب كلامه المبكر عن القدس فقاموا بقتله

قتلوه؟

اتفق الجميع على قتله فقام والد زوجته بذبحه وهو نائم" (الرواية: ٨٦٣)

جريمة القتل هنا أتخذ لها الروائي سببا وتبريريا لحصولها، فهي عامل لسلامة المجتمع، وعليه فإن التجسس ليس حدثا بسيطا، فهو خطر في كل المقاييس.

وإذا وقعت الجريمة وجب إنزال العقاب، والعقاب هو رسالة من المجتمع إلى أفراده يقول فيها هذا جزاء المخطئ، لم تكن تلك المفاهيم موجودة في مجتمع الرواية، فالسجن كان يضم إبراهيم عارف إبراهيم دون جريمة، ثم يقتل اليهود نهال حامد انتقاماً لإسرائيل، ويكتشف سميح صديق عارف تجسس أصحاب الخمارة فيقومون بقتله كي لا يشي بهم، نلاحظ أغلب الجرائم التي وقعت في الرواية كان فيها اليهود هم المجرمون، كما كان الضحايا هم الشخصيات العربية، لم تكن تلك الجرائم اعتباطيةً كان هناك إشارات عدة توحي بالجرائم المنظمة التي يقترفها اليهود، أراد ممدوح عدوان أن يسقط ماضي اليهود قبل وعد بلفور على حاضرهم الآن، فثقافة القتل والاغتيالات هي من مظاهر المجتمع اليهودي المعاصر.

وبعد أن استعرضنا الأبعاد الاجتماعية في رواية (أعدائي) من خلال صورة المرأة ومظاهر الجريمة والقهر الاجتماعي للإنسان، نلاحظ أنّه من الصعوبة الإلمام بكل مظاهر المجتمع في الرواية وذلك لأن شخصيات الرواية تنتمي لمجتمعاتٍ مختلفةٍ، وطبقات اجتماعية مختلفة أيضاً، وإثنيات متعددة فنحن أمام مجتمعات لكل مجتمعٍ خصوصيتهُ وأبعاده الاجتماعية، لكنّ (ممدوح عدوان) تمكن من خلال زمان ومكان الرواية أنّ يصنع مجتمعاً خاصاً لشخصياته، فأحداث الرواية التي يدور معظمها في الشرق الأوسط، جعلت المكان هو المحدد الرئيسي لمجتمع الرواية إضافةً إلى زمن الأحداث وهو نهاية الحكم العثماني أيضاً ساعد في بناء الأبعاد الاجتماعية للرواية وذلك من خلال خصوصية تلك الفترة الزمنية. وانتهاء حكم وبداية حكم آخر وصراع لقوى أخرى.

الخاتمة:

١. حاول (ممدوح عدوان) رسم وعي كلي ومنسجم داخل الرواية، من خلال البناء السيكولوجي والسيوسيولوجي للشخصيات.

٢. اختلفت الأبعاد الاجتماعية في رواية أعدائي، فهي لا تتشابه في اندفاعاتها ولا حتى في أهدافها، وأصولها، كذلك النساء تتراوح في سلوكها، كذلك تتراوح في مشاعرها، فبعضها تعلن الولاء للوطن، وبالعكس.

٣. استطاع ممدوح عدوان أن يمنح كثيرا من الشخصيات العربية القديمة أبعادا إيجابية ومفهومات حية جديدة، مسقطا عليها بعض من حاضرنا، ومخترقا ببعضها حجب التأريخ؛ ليكشف عن جوانب جديدة

٤. وبعد أن استعرضنا الأبعاد الاجتماعية في رواية (أعدائي) من خلال صورة المرأة والقهر الاجتماعي للإنسان والخيانة والقتل نلاحظ أنّه من الصعوبة الإلمام بكل مظاهر المجتمع في الرواية وذلك لأن شخصيات الرواية تنتمي لمجتمعات مختلفة وطبقات اجتماعية مختلفة أيضاً، وإثنيات متعددة فنحن أمام مجتمعات لكل مجتمع خصوصيتهُ وأبعاده الاجتماعية.

قائمة المصادر والمراجع

١. توفيق الشيخ حسين، فيصل دراج، في ذكرى ممدوح عدوان، دنيا الوطن، ٢٠٠٧

٢. حسان الشامي ، المرأة في الرواية الفلسطينية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٩٨

٣. حسن شحاته، عالم الجريمة، القاهرة،مكتبة النهضة العربية،د.ط.١٩٦٦.

٤. حنا عبود، من تاريخ الرواية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، د.ط ، ٢٠٠٢

٥. رمضان السيد، الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث،١٩٨٥

٦. العتبة الحسينية، مؤسسة الإمام الحسين، كربلاء في الشعر العربي _ممدوح عدوان ٢٠٢٢

٧. على جبار جلوب، سوسيولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجا)، مجلة القادسية للعلوم الانسانية، المجلد ٢٤العدد ٤ السنة ٢٠٢١

٨. فريال سماحة، رسم الشخصية في روايات حنا مينة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان بيروت، ط١، ١٩٩٩

٩. محمد بو عزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم دار الامان الرباط، ط١، ٢٠١٠.

١٠. محمد شحاته ربيع، جمعه سيد يوسف، معتز سيد عد الله، علم النفس الجنائي، دار غريب للطباعة والنشر، ١٩٩٤

١١. محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٠.

١٢. مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط ٩، ٢٠٠٥.

١٣. ممدوح عدوان، أعدائي، دار ممدوح عدوان للنشر، ٢٠٠٠، موقع الجزيرة نت، ٢٠٠٥

١٤. نجوى طراد، شهرة بو بقيرة، الأبعاد السياسية والاجتماعية في الرواية العربية، موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠١٧